مظاهر اهتمام سلاطين البَرْنُو بالنشاط التجاري من القرن 8- 10هـ/ 14- 16م

أ. انتصار جابر(*)

أ.د. حسين مراد(**) أ.د. سوزي أباظة(***)

• **مُلخص**

ترصد هذه الدراسة **مظاهر اهتمام سلاطين البَرْنُو بالنشاط التجاري من القرن 8- 10هـ/ 14- 16م**، من خلال عرضدور السلاطين في النشاط التجاري عبر عدة وسائل على الصعيدين الداخلي والخارجي، فعلى الصعيد الداخلي جاء إنشاء العاصمة بيرني جازارجامووإعادة للمصالح الحيوية في سلطنة البَرْنُو، وأحدث إنشاؤها كثيرًا من التأثيرات السياسية والعسكرية، والتجارية والاجتماعية والدينية أيضًا في جميع أنحاء حوض بحيرة تشاد، كما وضع السلاطين نظامًامحكمًا لإدارة السوق،بهدف حماية المصالح التجارية العامة للسلطنة ويترتب على ذلك تدعيم الدخل المالي، وأما على الصعيد الخارجي فقد اهتم السلاطين بتوسيع رقعة أراضيهم مما يعني توفير موارد أكثر دخلت في إطار تنشيط الحركة التجارية، فضلًا عن تمهيد الطرق التجارية، وتأمين تلك الطرق التي تربط السلطنة بمحيطها الإقليمي، فاستخدموا القوة لتحقيق الأمن والاستقرار على طول هذه الطرق، كما اهتموا إلى جانب ذلك بالتوسع في بناء علاقات دبلوماسية واقتصادية قوية مع دول العالم الإسلامي لفتح آفاق جديدة لعلاقات تجارية رائجة مع القوة المحيطة بسلطنة البَرْنُو.

وقد اتبعت هذه الدراسة منهج البحث التاريخي القائم على التحليل والربط، مع تقسيم الدراسة تقسيمًا موضوعيًا مع مراعاة الترتيب الزمني.

كلمات مفتاحية: كانم- برنو، سلطنة البَرْنُو، السودان الأوسط، سلاطين البَرْنُو، النشاط التجاري.

(*) مدرس مساعد بقسم التاريخ، بكلية الدراسات الأفريقية العليا، جامعة القاهرة

(**) أستاذ التاريخ الإسلامي، بكلية الدراسات الأفريقية العليا، جامعة القاهرة

(***) أستاذ التاريخ الإسلامي، بكلية الدراسات الأفريقية العليا، جامعة القاهرة

- **Abstract:**

This study discuses **"The Role of Sultans towards the Commercial Activities in Bornu sultans from the 8-10 AH / 14-16 AD centuries"**, by presenting the role of the sultans in commercial activity through several means at the internal and external levels, at the internal level, the establishment of the capital, Birni Gazargamo, came to restore the vital interests in the Sultanate of Bornu, and its establishment caused many political, military, commercial, social and religious influences also throughout the Lake Chad basin, and the sultans developed a tight system for market management, with the aim of protecting the general commercial interests of the Sultanate. on that strengthening financial income, At the external level, the sultans were interested in expanding their territory, which means providing more resources within the framework of stimulating the trade movement, as well as paving trade routes, and securing those roads linking the Sultanate with its regional surroundings, so they used force to achieve security and stability along these roads, and they were also interested in expanding the building of strong diplomatic and economic relations with the countries of the Islamic world to open new horizons for popular trade relations with the power surrounding the Sultanate of Bornu.

The study based on historical methodology with various tools according to chronological sequences.

Keywords: Kanem-Bornu, Bornu Sultanate, Central Sudan, the Bornu sultans, Commercial activity**.**

- **مُقدمة:**

يُعد النشاط التجاري أحد أهم مقومات اقتصاد سلطنة البَرْنُو؛ لذا فقد حاز على الجانب الأكبر من اهتمام سلاطين البَرْنُو الذين بذلوا في هذا السبيل جهودًا كثيرة، ولكن قبل أن نتطرق إلى تلك الجهود، علينا في البداية أن نعرف الهدف وراء هذا الاهتمام؛ حيث تبلورت أهداف السلاطين في عدة محاور؛ **أولها:** السعي إلى تأسيس كيان سياسي يمتد نفوذه خارج حدوده الإقليمية، ويتمتع بأساس اقتصادي قوي، وذلك بعدما ذاقوا مرارة انهيار سلطانهم في منطقة الكانم؛ هذا الإقليم المجدب اقتصاديًا، فتوجهوا إلى منطقة برنو التي أصبحت قاعدةلممارسة دورهم ككيان سياسي له قوة اقتصادية تميزه عن غيره، أما **ثانيها:** فكان الحرص على أن يظهر الحاكم مقدرته وكفاءته، وذلك بتوفير السلع المهمة والحيوية ذات الجدوى الاقتصادية، واحتكار بعضها، وما يتبع ذلك من سد متطلبات السوق المحلية والخارجية مما يزيد من العائد التجاري، **وثالثها:** تكوين ثرواتهم الخاصة بزيادة الإيرادات الناتجة عن النشاط التجاري، واعتمد نجاحهم في ذلك على فرض الضرائب وتحصيلها بشكل حاسم[1]، وأما **رابعها:** فيتمثل في إحكام قبضتهم على الطرق التجارية وتوفير الأمن اللازم لمرور التجار وقوافلهم على طول هذه الطرق.

وسوف يتم تناولمظاهر اهتمام سلاطين البَرْنُو بالنشاط التجاري من خلال تأسيس عاصمة للسلطنة، ثم جهودهم لتنظيم إدارة الأسواق، بالإضافة إلى توسيع رقعة السلطنة، وتمهيد الطرق التجارية وتحقيق الأمن، وأخيرًا رصد العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع العالم الإسلامي.

---

(1) الصادق السباني: مملكة كانم وعلاقتها بأقطار الشمال الأفريقي من القرن الثالث إلي العاشر الهجري" القرن التاسع إلي السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1989م، ص93. انظر أيضًا؛

Warner, Carolyn. M.: The rise of the state system in Africa, Review of International Studies (2001), p.72.; Fenske, James: Ecology, Trade, and States, p. 634.

أولًا- اختيار موقع العاصمة:

جاء تأسيس الأسرة الحاكمة لمدينة بيرني جازارجامو أو كما تطلق عليها المصادر المحلية غسرغمو[1] في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وتحديدًا في عهد الماي علي غازي بن دونمه (877 . 909هـ / 1472 . 1503م)، كشكل من أشكال اهتمام الأسرة الحاكمة بالتجارة؛ لأنها تقع في المنطقة الشمالية للسلطنة على ضفاف نهر كومودوغو يوبي Yobe[2]. وتميز موقعها بوجود أحواض الملح في المناطق الشمالية من النهر الحافز التجاري الرئيس للمنطقة؛ علاوة على أنها كانت حافزًا لجذب مزيد من السكان مما سمح بتطوير الإنتاج الزراعي

(1) تأسست عاصمة سلطنة البَرْنُو التي جاء ذكرها في ديوان سلاطين البَرْنُو باسم" غسركمو- غسرغمو" أو بيرني جازارجامو كما أطلق عليها في المصادر الأجنبية والتي تعني المدينة المحصنة أو القلعة الحصينة علي يد السلطان غازي بن دونمه (877 . 909هـ / 1472 . 1503م)، وتقع غسرغمو في منطقة التقاء نهري يوبي وجانا، للمزيد راجع؛ مجهول: ديوان سلاطين برنو، نشر في كتابمن شأن إدريس ألومه للإمام أحمد البَرْنُوي، المطبعة الأميرية، كانو، د.ت، ص135؛ انتصار جابر يونس: الحياة السياسية في سلطنة البَرْنُو خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 2016، ص42، 86. انظر أيضًا؛

Tijani, Kyari.: The Mune in Pre-Colonial Borno, Berichte des Sonder for schungsbereichs 268, Bd. 2, Frankfurt a. M. 1993, p. 231.;Lange, Dierk: Ethnogenesis from within the Chadic State, p.273.

(2) يعد هذا النهر حاليًا ضمن الحدود السياسية التي تفصل دولتي النيجر ونيجيريا، وتقع المدينة في موقع بالقرب من التقاء نهري كامادوجويوبي Komadugu Yobe مع كامادوجو جانا Kamadugu Gana؛ للمزيد راجع؛ جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، ط1، دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، 1984م، ص95.؛ انظر أيضًا؛

Lange, Dierk: Ethnogenesis from within the Chadic State. Some Thoughts on the History of Kanem-Borno, Paideuma, Bd. 39 (1993), p.273.

والصناعي للسلطنة[1]، فضلًا عن أن موقع العاصمة عمل على تسهيل الإغارة على مناطق جلب الرقيق؛ السلعة ذات الأهمية الاقتصادية والتجارية البالغة[2]. فأصبحت العاصمة مركزًا حضاريًا سمح لسلاطين البَرْنُو بمزيد من السيطرة على المنطقة، فكانت نقطة انطلاق للتوسع البَرْنُوي خلال النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد؛ وذلك لأنها مكَّنت السلاطين من الوصول إلى مدن أخرى في منطقة الساحل، وخاصَّة إمارات الهوسا، كما شجع موقع العاصمة على تطوير كل من قدرات الإنتاج المحلية والتبادلات التجارية الخارجية؛ لذلك أسهم تأسيس العاصمة في زيادة الإمكانيات الإنتاجية للمنطقة، وإدراجها ضمن شبكة من التبادلات التجارية في المحيط الإقليمي، وأصبحت عاصمة البَرْنُو أحد أهم المراكز الجاذبة للتجار القادمين عبر الصحراء[3].

وأكدت تقارير الحفائر الآثارية أن هذه المنطقة شهدت تغييرات مهمة في ميزان القوى بين القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين[4]،وهذا يؤكد أن إنشاء بيرني جازارجام وقد أعاد تشكيل المصالح الحيوية في سلطنة البَرْنُو، وأحدث كثيرًا من التأثيرات السياسية والعسكرية، والتجارية والاجتماعية والدينية أيضًا، في جميع أنحاء حوض بحيرة تشاد.

(1) Candotti, Marisa:Manifatture tessili e sviluppo di stati nella savana Nigeriana (xiv-xviisecolo), Africa: Rivista trimestrale di studi e documentazione dell'Istituto italiano per l'Africa e l'Oriente, Settembre 2002, Anno 57, No. 3 (Settembre 2002), p. 427.

(2) Hogben, S. J.:The Muhammadan Emirates of Nigeria, Oxford University press, London, 1930, p.37

(3) Candotti, Marisa: Manifatture tessili e sviluppo, p. 427

(4) Ogundiran, Akinwumi: Four Millennia of Cultural History in Nigeria (ca. 2000 B.C.—A.D. 1900): Archaeological Perspectives, Journal of World Prehistory, Vol. 19, No. 2 (June 2005), p.145

ثانيًا- تنظيم إدارة الأسواق:

قامت سياسية الحكام في الأسواق على أساس السماح لكافة العناصر الإثنية في أراضي السلطنة بالمشاركة في العمل التجاري،ولما كانت السلطنة تتمتع بالتنوع العرقي فضلًا عن التنوع البيئي، فقد حققت تلك السياسة القائمة على مشاركة الجميع في العمل التجاري نجاحًا كبيرًا في اقتصاد السلطنة، إذ توافرت أعداد كبيرة من الأيدي العاملة، مما سمح بتوافر كثير من السلع التي غطت متطلبات السوق المحلية، ودخل جزء منها في قائمة صادرات السلطنة(1).

وترى الباحثة أن سياسية سلاطين البَرْنُو قد حققت مكاسب كبيرة على الصعيدين السياسي والاجتماعي بخلاف الجوانب الاقتصادية، فبقدر ما أفادت تلك السياسةُ الاقتصادَ البَرْنُوي فكانت فائدتها كبيرة على الصعيد الاجتماعي؛ إذ لم تعد التجارة حكرًا على عرقية محددة ولا طبقة بعينها، وإنما تمتع الجميع بحرية العمل في التجارة، مما قلل حالة السخط العام التي قد يواجهها التجار كعنصر من عناصر المجتمع البَرْنُوي.

وقد اهتمت السلطة الحاكمة بسير العملية التجارية في الأسواق ووضعت كثيرًا من الضوابط في سبيل تحقيق ذلك، منها اهتمامها بالرقابة العامة ليس للعاملين في الأسواق فقط، وإنما للمشرفين على إدارتها أيضًا، واتخذت بعض الإجراءات لضبط الأسواق كتحصيل رسوم على البضائع الواردة للأسواق، وضبط أسعارها ومراقبة عمليتي البيع والشراء، وتعيين وكلاء ينوبون عن السلطة لمباشرة المعاملات التجارية في الأسواق ومراقبتها؛ لمنع حالات الغش والجور من قبل التجار؛ علاوة على ذلك جعلت لكل سلعة تجارية في السوق مشرفًا، وهؤلاء المشرفون أو الرؤساء الصغار كانوا يجتمعون في النهاية تحت مسؤولية رئيس السوق(2).

(1) Fenske,James: Ecology, Trade, and States in Pre-Colonial Africa, Journal of the European Economic Association, Vol. 12, No. 3 (June 2014), p. 633.

(2) انتصار جابر يونس: الحياة السياسية في سلطنة البرنو، ص86، 87.

وأولت السلطة اهتمامًا خاصًا بالتجار الأجانب، ولا سيما الذين قدموا من بلاد المغرب، فوفرت لهم أماكن للإقامة فيها طيلة وجودهم في السلطنة، وخصصت لهم مسؤولًا يهتم بخدمتهم، ومسؤولًا آخر يعد الوسيط بين التجار الأصليين والتجار الأجانب، والذي وقع على عاتقه السعي إلى إقامة علاقات تجارية قوية بين الجانبين[1]، وهكذا يتضح أن السلطنة وضعت نظامًامحكمًا لإدارة السوق،بهدف حماية مصالحها التجارية العامة وبالتالي تدعيم الدخل المالي[2].

ومن المؤكدأن هذهالتدابير التي اتخذها سلاطين البَرْنُوكانت في غاية من الأهمية؛ لأنها تشير إلى حنكة الحكام فيإدارة حركة الأسواق التجارية؛مما ساعد في إحكام السيطرة على الأسواق وضبط الأسعار، فضلًا عن حماية التاجر البَرْنُوي والتاجر الأجنبي على الأخص لضمان استمرار التجارة الخارجية.

ثالثًا- إحكام السيطرة على بعض السلع التجارية:

كان لمشاركة السلطة الحاكمة في العمل التجاري عائده على أولئك الحكام الذين أصبحوا أكثر دراية بحاجة الأسواق في سلطنتهم، فسعوا لتوفير السلع المهمة التي تلقى رواجًا[3]، فضلًا عن إحكام قبضتهم على بعض تلك السلع؛ ولا سيما الرقيق الذي احتكروا تجارته في المنطقة[4]، فصارت الإيرادات الناتجة عن تجارته تمثل نسبة كبيرة

(1) Alkali, Muhammed. Nur: Economic factors in the history of Borno under the Seifuwa, In: Usman. Bala And Alkali. Nur (Editors): Studies in the History of Pre-Colonial Borno, Northern Nigerian Publishing Company, Nigeria, 1983, pp.70, 72, 73, 74.

(2) Davidson, Basil**:**Africa in History Themes and Outlines**,** London, 1984, p. 99. p. 99.

(3) Fenske,James: Ecology, Trade, and States, p. 632.

(4) الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص176، 177.

من الدخل المالي للسلطنة، فقد مثل الرقيق السلعة الرئيسة التي تدخل في حركة التبادل التجاري للحصول على المنتجات الواردة من الأقاليم الشمالية، فتمت مقايضة الرقيق مقابل الخيول[1]، وهنا نجد أن سلاطين البَرْنُو قد وجهوا الحركة التجارية لخدمة قوات السلطنة العسكرية، إذ كانت تواجه كثيرًا من التحديات الحربية، فكانت في حاجة ملحة للخيول[2].

وإلى جانب تجارة الرقيق اهتم سلاطين البَرْنُو بتجارة الملح، فكانوا لا يدخرون جهدًا في سبيل الحصول عليه، ولذا سعوا لفرض سيطرتهم على أهم مناجم الملح في بلما وأجرم بواحة كوار وغيرهما من المناطق التي توافر فيها الملح بكميات كبيرة[3]، فأضحى الملح الذي احتكرته البَرْنُو وحددت أسعاره إلى جانب الرقيق مصدرين مهمين للدخل في سلطنة البَرْنُو[4].

Bovin, M.: Nomades « sauvages » et paysans « civilisés»: WoDaaBe etKanuri au Borno, Journal des africanistes, tome 55 fascicule 1-2, 1985, p.55.

(1) Hodgkin, Thomas: Nigerian perspectives an historical anthology, oxford university press, London, oxford, New York, 1975, p.33.; Lange, Dierk: Progres de L'Islam et Changement Politique au Kanem du XIe au XIIIe Siecle: Un Essai D'Interpretation, TheJournal of African History, Vol. 19, No. 4 (1978), pp.512- 513.

(2) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص167، 177.؛ محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية: المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ص142.انظر أيضًا؛

Urvoy, Yves: Histoire de I'Empire du Bornou, librairie la rose, Paris, 1949, p.76.

(3) Stahl, Ann. Brower: Political Economic Mosaics: Archaeology of the Last Two Millennia in Tropical Sub-Saharan, Annual Review of Anthropology, Vol. 33 (2004), p.154.

(4) Knut S. Vikor: An Episode of Saharan Rivalry: The French Occupation of Kawar, 1906, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 18, No. 4 (1985), p703

وإلى جانب الرقيق والملح دخلت عديدٌ من السلع كريش النعام والذهب والعاج في مجال التبادل التجاري بين سلطنة البَرْنُو والمحيط الإقليمي لها، كما تضمنت قائمة الواردات التي دخلت أسواق السلطنة عددًا من السلع، كان أهمها الخيول والبنادق والحرير والزجاج والنحاس[1].

وهكذا أسهمت التجارة –وخاصة في بعض السلع المهمة– في زيادة الدخل،ولا سيما دخل الأسر الحاكمة التي احتكرت تجارة بعض السلع المهمة فضلًا عن عائدها من فرض الضرائب على مناطق بعينها، مما سمح للسلاطين بتجميع الثروات التي أكسبتهم الهيبة [2].

رابعًا– توسيع رقعة السلطنة وأثره التجاري:

ظهرت سلطنة البَرْنُو كقوة مهيمنة، لها وضعها بين الدول نتيجة استخدام قوتها العسكرية لتحقيق غايات اقتصادية [3]، وبدأ الأمر حينما اهتم الحكام بتنظيم جيش قوي، وخرجوا بأنفسهم في حملات عسكرية لتوسيع رقعة أراضيهم، ونجحوا في فرض سيطرتهم على المناطق المحيطة وحققوا كثيرًا من المكاسب[4]، ويمكن رصد بعض توسعات الحكام بداية من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مع جهود الماي دونمة دباليمي(618–656هـ/ 1221– 1259م) الذي قام بجهود مضنية لتوسيع حدود مملكته، ووجه اهتمامًا أكبر للشمال لأهميته التجارية فامتد نفوذه حتى شمل فزان التي

(1) Bovin, M.: Nomades « sauvages », p.55; Oliver, Roland & Atmore, Anthony: Medieval Africa 1250- 1800, Cambridge University Press, United Kingdom, 2001, p.9.

(2) Fenske,James: Ecology, Trade, and States, p. 634.

(3) مفتاح يونس الرباصي: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو (7– 10هـ/ 13– 16م)، ط1، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2008، ص110. انظر أيضًا؛

Falola, Toyin& Heaton, Matthew M.:A History of Nigeria, Cambridge University Press, 2008, p.27.

(4) Page, Willie F.: Encyclopedia of African History and Culture, Volume 3, From conquest to colonialization (1500-1850), Library of Congress, USA ,2005, P. 169

مثلت مركزًا مهمًا من مراكز تجارة السودان الأوسط، وجنوبًا حتى بلاد المندرة التي كانت مصدرًا مهمًا للحصول على أعداد كبيرة من الرقيق[1].

وقد أسهمت تلك التوسعات في جلب الاستقرار والأمن لحركة التجارة بعد أن سيطر الماي دونمة دباليمي على اثنتين من الطرق الرئيسة للتجارة عبر الصحراء في نطاق السودان الأوسط، أولاهمًا: الطريق التجاري الذي ربط بين الشمال والجنوب والذي يمتد من طرابلس على سواحل البحر المتوسط مرورًا بفزان وحتى إقليم البَرْنُو فيربط بين مناطق السودان الأوسط وأسواق شمال أفريقيا[2]، وأما الطريق الثانية، فهي تلك الطريق التي تربط بين الشرق والغرب[3]، بين الموانئ على سواحل البحر الأحمر في مصر وبلاد النوبة، وبين السودان الغربي[4]. وعلى هذا النحو أصبحت سلطنة البَرْنُو تمارس نفوذًا سياسيًا على رقعة واسعة من الأرض تمتد من أقصى الجنوب والجنوب الشرقي لبحيرة تشاد حتى إقليم فزان في أطراف الصحراء الكبرى الجنوبية، ومن حدود بلاد الهوسا غربًا حتى مناطق سيطرة قبائل البولالا شرقًا[5].

---

(1) شوكت عارف الآتروشي: دولة كانم الإسلامية دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية من القرن (5. 8 هـ/ 11. 14م)، ط1، دار دجلة، الأردن، 2007، ص88؛ خالدي مسعود: الجاليات العربية والبربرية في السودان الأوسط والغربي من"القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري الحادي عشر إلى السادس عشر الميلادي"، المكتبة المصرية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2014، ص441.

(2) يتضح الطريق التجاري من منطقة بحيرة تشاد إلى بلاد المغرب شمالًا على الخريطة المرفقة التي توضح اتساع سلطنة البرنو نحو الشمال.

Falola, Toyin& Heaton, Matthew M.:A History of Nigeria, p.27

(3) انظر الخريطة (2) توضح الطريق التجاري من الغرب إلى الشرق.

(4) الإمام أحمد البرنوي: كتابمن شأن إدريس ألومه، المطبعة الأميرية، كانو، د.ت، صـ132؛انظر أيضًا؛

Lange, Dierk: Progres de L'Islam , pp.512, 513.

(5) تاديوز ليفيتسكى: دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب، تاريخ أفريقيا العام، جـ3، اليونسكو، لبنان، 1994م، ص304-310؛ للمزيد انظر؛

وضعفت سيطرة السلطنة على بعض الأجزاء في فزان وكوار منذ بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي نتيجة للاضطرابات السياسية، واشتداد خطر الطوارق في الشمال فضعف التبادل التجاري بين البَرْنُو وبين دول شمال أفريقيا، واستمرت الاضطرابات قائمة حتى الربع الأخير من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وتحديدًا خلال عهد السلطان علي غازي بن دونمه (877 –909هـ / 1472– 1503م) الذي تمكن من توحيد قواته وتقوية جيشه حتى يتعامل مع خصومه، فأعاد سيطرة السلطنة في الشمال، واستطاع مد نفوذها غربًا وأخضع إمارة كانو التي دفعت الجزية للسلطنة[1]. بالإضافة إلى ما سبق امتد سلطانه على الكوارارفا[2]Kwararafa، واستولى كذلك على بعض المناطق التابعة لبلاد

Lange, Dierk.: Biblical Patriarchs from a pre-canonical source mentioned in the Diwan of Kanem-Bornu (Lake Chad region), University of Bayreuth, Germany, (2009), p.589.

(1) حسين سيد عبد الله مراد: دولة كانو الإسلامية تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن 9هـ/ 15م، بحوث في الدراسات الأفريقية، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1997م، ص56، للمزيد راجع؛

Brenner, Louis: The Shehus of Kukawa, A History of the AL-Kanemi Dynasty of Bornu, Doctor of Philosophy, in the Faculty of Political Science, Columbia University, 1968, p.22.

(2) هو اتحاد من بعض القبائل الوثنية منها الكوتوكو والماسا والموسغو، وتجمعت هذه القبائل في اتحاد منذ القرن 8هـ/ 14م، مستغلين انشغال سلطنة البرنو في حروبها مع البولالا، ومدت هذه القبائل نفوذها على الجزء الجنوبي من أراضي الهوسا، وحاول بعض سلاطين الهوسا التصدي لهذه القوة الناشئة، فقاد ساركن كانو حملة ضدهم في 1385م، كما حاول سلاطين البرنو كبح جماحهم كالماي علي غازي حتى تشتت قوة هذا الاتحاد أمام الهجوم الذي شنه الكونا، ولكن العناد تسلط عليه هو والسلطان سعيد مونين باجو، واستأنف رجاله المعركة مرة ثانية حتى أحرزوا النصر، وهكذا رغم أن النصر ظل في المقام الأول إلى جانب برنو، فإنه ظل نصرًا مزعزعًا، واستمر الاتحاد بمثابة شوكة أخرى في جسد كانم برنو قرابة ثلاثة قرون للمزيد راجع؛ ك. مادهو. بانيكار: الوثنية والإسلام، ص191.انظر أيضًا:

البركووتيبستي[1]. وبذلك حقق السلطان علي غازي كثيرًا من الإنجازات العسكرية، وأسهم في مزيد من التوسع لرقعة السلطنة وما تبع هذا التوسع من توافر مزيد من الموارد الاقتصادية.

وجاء القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ليشهد على هيمنة سلطنة البَرْنُو وقوتها وسط جيرانها، والذي اعتمد في المقام الأول على سلاح الفرسان والأسلحة العسكرية التي قدمها الحكام، ويبدأ هذا القرن برغبة سلاطينه بضرورة استرجاع كانم من قبيلة البولالا، وتكوين سلطنة قوية تضم شرق البحيرة وغربها، لذلك اشتهر حكام هذا القرن بتوجيه كثير من الحملات نحو الشرق فحينما تولى السلطان إدريس بن علي(910- 933هـ/ 1504- 1526م)[2]، بذل جهوده لاستعادة كانم، وأعاد نجيمي عاصمة أجداده مرة أخرى واستردها لتعود كانم إلى حكم الأسرة السيفية في عام 913هـ/ 1507م، فأصبحت جزءًا من السلطنة، غير أن السلطان البَرْنُوي ترك للبولالا حق إدارة أمور كانم مقابل الجزية والخراج فقط[3]، واهتم السلطان علي بن إدريس كذلك بتدعيم علاقاته الاقتصادية في المناطق الشمالية، فازدهرت السلطنة اقتصاديًا وأصبحت مدينة بيرني مركزا تجاريًا ولا سيما لتجارة الرقيق[4].

Brenner, Louis: The Shehus of Kukawa, p.21; Martin, B. G: Kanem, Bornu, and the Fazzan: Notes on the Political History of a Trade Route, The Journal of African History, Vol. 10, No. 1 (1969), p.22.

(1) إبراهيم صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1976م، ص93. انظر أيضًا؛

Ifemesia, C.C.: States of the Central Sudan: Kanem-Bornu, the Hausa States, A Thousand Years of West African History, Nigeria, 1979, p.77.

(2) Barth, H.: Travels and Discoveries in North and Central Africa, London, 1890, p.590.

(3) الإمام أحمد البَرْنُوي: كتابمن شأن إدريس ألومه، ص54. انظر أيضًا؛

Urvoy, Yves: Histoire de I'Empire, p.73.

(4) Page, Willie F.: Encyclopedia of African, P.113

ولما تولى الماي محمد بن إدريس (933– 951هـ/ 1526– 1545م)، مقاليد الحكم استكمل ما بدأ في عهد أسلافه ونجح في استرجاع إقليم كانم كاملًا، وظل تحت سيادة البَرْنُو طيلة حكمه[1]. كما أخضع بعض الأقاليم شمال وغرب إمارة كيبي الواقعة غربي السلطنة[2]، ودانت له عدد من القبائل الوثنية بالولاء، فألزمهم بدفع الجزية للسلطنة[3].

استمرت محاولات السلاطين لتوسيع أراضي السلطنة حتى الربع الأخير من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي حتى تمكن السلطان إدريس ألوما(979– 1012هـ / 1571– 1603م) من مد نفوذه إلى إمارات الهوسا غربًا، وإلى دارفور شرقًا، وإلى فزان شمالًا، وعلى هذا النحو اتسعت رقعة السلطنة ونشطت حركة التجارة في إقليم السودان الأوسط بعد أن أَمَّنَ السلطانُ الطرقَ التجارية تأمينًا تامًا بين بحيرة تشاد وشمال أفريقيا وبينها وبين المشرق الإسلامي[4]، فقد وصلت السلطنة في عهده

(1) الإمام أحمد البَرْنُوي: كتابمن شأن إدريس ألومه، ص55. انظر أيضًا؛
Barth, H.: Travels and Discoveries, p.590.

(2) إمارة كيبي أوكب إحدى إمارات الهوسا، خضعت لحكم مملكة صنغي، إلا أنها تمتعت بحكم ذاتي على أثر انقلاب أحد قواد صنغي الذي خرج عليهم واستقل بمقاطعة كيبي، وهذا القائد هو حاكمها كوتا، المشهور بلقب كُنت، أي ملك، واتسع ملكه باستيلائه على كاتسينا وجوبير وزاريا، ثم امتد نفوذه إلى أير، وقد دخل الإسلام إليها في وقت مبكر، ويُعد محمد نمكاك أول ملك يحمل اسمًا إسلاميًا من ملوكها وترتيبه الحادي عشر، انظر: مجهول: أسماء أمراء كب، مخطوطة محفوظة بقسم المخطوطات العربية والأعجمية، جامعة نيامي، النيجر، تحت رقم 698، ورقة 1؛ عبد القادر بن المصطفى مالم تفا: بعض أخبار هذه البلاد الحوسية والسودانية وطرف أخبار ملوكها وسلاطينها، مركز المخطوطات للعلوم الإنسانية، مخطوطة بقسم المخطوطات العربية والأعجمية، جامعة نيامي، النيجر، تحت رقم 1415، ورقة 9؛ ك. مادهو. بانيكار: الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غربي أفريقيا، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1995، الحاشية رقم 33، ص190.

(3) Palmer, R.: The Bornu Sahara and Sudan, London, 1936, p.228.

(4) فضل كلود الدكو: الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم من 600– 1000هـ/ 1200–1600م، ط1، كلية الدعوة الإسلامية، القاهرة، 1998، ص210. انظر أيضًا؛

أوج ازدهارها، ووقع في حوزتها مناطق إنتاج لسلع حيوية أمنت للسلطنة سلعًا مهمة دخلت في إطار التبادل التجاري وأعلت من مواردها الاقتصادية ومكانتها السياسية في وسط أفريقيا وغربها[1]، وترتب على ذلك استمرار سيادة نفوذ سلطنة البَرْنُو على المنطقة.

خامسًا- تمهيد الطرق التجارية وتحقيق الأمن:

تمكنت سلطنة البَرْنُو من التجارة مع بلدان الغرب والشرق والشمال، وأصبحت منطقة بحيرة تشاد نقطة التقاء لعدد من الطرق التجارية الرئيسة التي تربطها بمراكز السودان الأوسط والغربي وبلاد الهوسا وبلاد المغرب ومصر وأسواقها. وقد مكنها من ذلك موقعها الجغرافي ووجودها على المحطة الجنوبية لطريق القوافل الرئيس الذي كان يمر عبر واحات فزان وكوار، هذا المسار الذي يُعد أكثر خطوط الاتصال المباشر بين منطقة بحيرة تشاد وبلاد المغرب والبحر المتوسط[2]. ومع مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بدأت اقتصادات برنو في التوسع بفضل تأمين طرق التجارة الإقليمية التي يكثر فيها قطاع الطرق، وإنشاء شبكة طرق تجارية مستقرة، والقيام على مراقبتها[3].

وقد أولت السلطنة أهمية خاصة لطريق التجارة الشمالي والممتد من بحيرة تشاد حتى فزان وودان[4]، ولم يكن الشاغل الرئيس لهذا الاهتمام هو فرض الضرائب وتحقيق

Hogben S. J.: The Muhammadan Emirates, p.40.

(1) Ifemesia, C.C.: States of the Central Sudan, p.82

(2) Flynn, Sébastien: The Relationship between the Ottoman Empire and Kanem-Bornu during the reign of sultan Murad III, A Master's Thesis, Department of History, İhsan Doğramacı Bilkent University, Ankara, September 2015, p.34.

(3) Magnavita**, Carlos,** Dangbet, **Zakinet, et** Bouimon**, Tchago**: The Lake Chad region as a crossroads: an archaeological and oral historical research project on early Kanem-Borno and its intra-African connections, Afrique: Archéologie & Arts, 15 | 2019, p. 5.

(4) انظر خريطة (1) توضحالطريق التجاري من سلطنة البرنونحو الشمال.

الإيرادات، وإنما تعدى الأمر أبعد من ذلك، فكان اهتمامها الرئيس ينصب على تأمين استقرار الطريق الأوسط العابر للصحراء وبالتالي استمرار التجارة التي كانت حيوية لبقاء السلطنة[1].

وترجع أهمية هذه الطريق أولًا إلى وجود واحة كوار التي كانت تقع بين فزان وبحيرة تشاد، ولم تكن كوار مجرد واحة ذات موقع متميز في الصحراء، لكن كانت بلدتاها بيلما وأجرام غنيتين بمناجم الملح؛ هذا المورد الأكثر طلبًا واحتياجًا لدى سكان السلطنة؛ لذلك حرص سلاطين البَرْنُو على إحكام قبضتهم وسيطرتهم عليها. وثانيًا اكتسبت هذه الطريق أهميتها أيضًا من وجود صحراء فزان التي لعبت دورًا رئيسًا في النظام التجاري العابر للصحراء؛ لأنها لم تكن فقط مفترق الطرق التجارية التي تربط بين طرابلس وبحيرة تشاد، ولكن أيضًا مفتاحًا للتجارة بين الشرق والغرب؛ حيث الطرق التي ربطت مصر بشكل رئيس بطرابلس وبحيرة تشاد، وهذه المناطق بتونس ومملكتي مالي وصنغي في السودان الغربي[2]، وبالنسبة إلى سلطنة البَرْنُو، كانت فزان هي السبيل الوحيد لوصول صادراتها إلى كل من طرابلس والمدن الكبرى الأخرى في الشمال والغرب، والشرق[3]، إضافة إلى ذلك أنه كان من حق الدول التي تمتلك منافذ على هذه الطريق أن تتدخل مباشرة للسيطرة على هذا الشريان الفريد إذا ما توفرت لها الإمكانيات، وهذا ما سعى إليه سلاطين البَرْنُو[4].

---

(1)Page, Willie. F.: Encyclopedia of African, P.127.

(2) مملكتي مالي وصنغي من أشهر الوحدات سياسية التي قامت في منطقة السودان الغربي الواقعة جنوب الصحراء الكبرى بين المحيط الأطلسي غربا وبحيرة تشاد شرقًا، للمزيد راجع، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباع والنشر، بيروت، ص10.

(3) Flynn, Sébastien: The Relationship between the Ottoman Empire and Kanem-Bornu, p.35-36.

(4) Lange, Dierk, and Berthoud, Silvio: Al-Qasaba et d'autres villes de la route centrale du Sahara, Paideuma: Mitteilungen zur Kulturkunde, Bd. 23 (1977), p. 19

ولما كان الوضع العام في الصحراء يتسم بانعدام الاستقرار السياسي والأمني[1]، فقد استوجب ذلك القضاء على كل ما يهدد الأمن وانتظام حركة التجارة عبر الصحراء[2]، وذلك إما بتكوين تحالفات مع بعض القوى التجارية في الصحراء، أو بشن حملات للتخلص من القبائل المعادية للسلطنة، ليس لحماية التجارة فحسب، وإنما لفتح مجال أوسع للتبادل للتجاري[3].

وكان من نتائج تلك الجهود التي بذلت من جانب سلاطين البَرْنُو لتحقيق الأمن والاستقرار في مناطق الصحراء أن تعرضت السلطنة لاعتداءات عدد من القبائل المقيمة في الصحراء منها قبائل جذام العربية التي أغارت على رعايا السلطنة وأسرتهم لبيعهم كرقيق في مصر والشام، فأرسل الماي عثمان بن إدريس (795- 829هـ/ 1392- 1425م) خطابًا إلى السلطان المملوكي الناصر أبي سعيد برقوق (748- 799 هـ/ 1382 - 1396م)[4]، يستنكر فيه شراء التجار المشارقة لرعاياه، ويطلب من سلطان مصر التفتيش عمن بيع من رعاياه كرقيق وإرجاعهم إليه، وبخاصة أن هذه القبيلة عُرف عنها مساعدتها للبولالا ضد الأسرة السيفية في كانم، وظلت مناوشاتها حتى بعد الرحيل إلى برنو[5]، وظهر أيضًا خطر قبائل الطوارق الذين اشتد فتكهم بالقوافل، فتعثرت التجارة بسببهم مع بلاد المغرب، وفضلًا عن خطر القبائل فقد

(1) Passon J., Hamid S., Mughrabi H., Swifka S. (2020) Traders, Nomades and Slaves. In: Braun K., Passon J. (eds) Across the Sahara. Springer, Cham. https://doi.org/10.1007/978-3-030-00145-2_3, p.49.

(2) Alkali, Muhammed. Nur: Economic factors in the history of Borno, p.58.

(3) انتصار جابر يونس: الحياة السياسية في سلطنة البرنو،ص17.

(4) Palmer, H.: The Kingdom of Gaógha of Leo Africanus. Part II, Journal of the Royal African Society, Vol. 29, No. 116 (Jul., 1930), p.351.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج8، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، صـ117.

تعرضت الحركة التجارية كذلك لخطر قطاع الطرق، فسعى السلاطين للقضاء على قُطَّاع الطرق والتخلص من شرهم[1].

وبذل بعض سلاطين القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي جهودهم من أجل تنشيط حركة التجارة، فعملوا على تدعيم علاقاتهم بالقبائل المحيطة بهم خارج برنو ممن لهم دور مؤثر في حركة التجارة الخارجية، فأرسل السلطان جاجي Gaji[2] بن إيمالا " أمالو" (860– 866هـ/ 1455– 1461م) رسالة إلي حاكم توات أشار فيها إلى رغبته في استئناف مرور القوافل التجارية الخاصة بتوات عبر أراضي السلطنة بعدتوقفها لفترة، ويؤكد السلطان في رسالته على إعفائهم من دفع أية رسوم[3]؛ من أجل تحفيزهم للقدوم عبر الطرق والمراكز التجارية التي تسيطر عليها سلطنة البَرْنُو.

وهكذا نجح سلاطين البَرْنُو في فتح آفاق جديدة مع مناطق شمال الصحراء لدفع حركة التجارة المارة عبر الأراضي التي سيطروا عليها ونجحوا في تأمين طرقها التجارية.

وقد حاول السلطان علي جاجي تدعيم نفوذ سلطنة البرنو على جانبي الصحراء الكبرى، وحالفه النجاح في فزان، وأعيد فتح طريق التجارة إلى الشمال، وفي وسط الصحراء الكبرى واتته الفرصة في أواخر حكمه، وذلك عندما استغاث به حاكم أير الذي ضاق ذرعًا بسيطرة إمارة كيبي، فقاد علي جاجي حملة ضد كيبي، وتشير هذه

---

(1) ك. مادهو. بانيكار: الوثنية والإسلام، صـ189.انظر أيضًا؛

Schultze, Arnold: The sultanate of Bornu, tr. from the German; with additions and appendices by P. Askell Benton, London, 1968, p.17.

(2) كلمة جاجي أي غازي Gaji وتسمى أيضًا "Gaji" أو "Gana جانا"، وكلتاهما كلمتان تعني "قليلا" أو "أقل"، وباللغة العربية رسائل ترجمها "الصغير" كلمة عربية ل "قليلا". للمزيد راجع؛

Palmer, H.: The Kingdom of Gaȯgha of Leo Africanus, Part II, Journal of the Royal African Society, Vol. 29, No. 116 (Jul. 1930), p.353.

(3) Palmer, H.: The Kingdom of Gaȯgha of Leo Africanus, Part II, p.355.; Shehu, Sulaiman: A Historical Review of Islam in Kanem Borno, Kaduna State University, Kaduna, Nigeria, December, 2018, p.9.

الرسالة إلى حرص السلطان على توسيع المجال التجاري وزيادة أعداد القوافل المارة عبر أراضي البَرْنُو فضلًا عن تنوع السلع التجارية في أسواق السلطنة، ومن ثم إسهام التجارة في نشاط مجمل اقتصاد السلطنة[1].

رغم هذا التطور الكبير الذي شهدته سلطنة البَرْنُو على الصعيد التجاري، فإن الأخطار أحدقت بالسلطنة، ولا سيما من جانب قبائل الطوارق والتيبو والصو[2]، تلك القبائل المعادية والخارجة عن سلطة مايات البَرْنُو، والتي اعتادت السلب والنهب واشتد فتكها بالقوافل التجارية عند مرورها بأراضيهم[3]، فترتب على ذلك تعثر الحركة التجارية ولا سيما مع بلاد المغرب، فوجب على سلاطين البَرْنُو مواجهة تلك التعديات بالقوة[4]. وكان السلطان إدريس ألوما، من أشهر سلاطين البَرْنُو الذين تمكنوا من القضاء على خطر تلك القبائل وتأمين الطرق التجارية، وبذلك تمكنت السلطنة من حماية أراضيها واقتصادها[5]. وكان من ثمرة تلك الجهود التي قام بها إدريس ألوما وأسلافه تغيير الوضع الاقتصادي للسلطنة، وتنشيط الحركة التجارية بها على نحو كبير، وصارت الطرق التجارية التي تمر عبر أراضي السلطنة هي أفضل الطرق وأكثرها أمنًا بالنسبة للتجار.

على هذا النحو استخدم سلاطين البَرْنُو القوة لتحقيق الأمن والاستقرار على طول طريق التجارة المارة عبر أراضيهم، وكما استخدم سلاطين البَرْنُو القوة في تحقيق الأمن

---

(1) إبراهيم صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب، ص95.انظر أيضًا؛
Urvoy, Yves: Histoire de I'Empire, p.74.

(2) Palmer, H.: The Bornu Sahara and Sudan, p.227

(3) عثمان عبد الجبار عثمان: تاريخ الزغاوة في السودان وتشاد،المصرية الدولية للدعاية والتوريد، القاهرة، ط1، 2006م، ص105.

(4)Schultze, Arnold: The sultanate of Bornu, p.17.; Ifemesia, C. C.: States of the Central Sudan, p.80.

(5) Brenner, Louis:The Shehus of Kukawa: A History of the AL-Kanemi, p.21.

والاستقرار في الطريق التجاري، استخدموا كذلك العمل الدبلوماسي لفتح آفاق جديدة لعلاقات متميزة مع القوة المحيطة بسلطنة البَرْنُو على نحو ما سنعرض في النقطة التالية.

سادسًا- العلاقات السياسية والاقتصادية مع العالم الإسلامي:

يعد تدعيم الصلات بين حكام الكانم والبَرْنُو وبين حكام بلدان العالم الإسلامي مظهرًا آخر من مظاهر اهتمام السلطة الحاكمة بالتجارة، ولا سيما أن هذه الصلات دفعتها بالأساس عوامل اقتصادية من أجل حماية التجارة وفتح مجال أوسع للتبادل للتجاري.

فبعد القضاء على الأخطار التي أرقت مضجع سلاطين البَرْنُو وأثرت على اقتصادهم، سعى أولئك السلاطين إلى تدعيم علاقاتهم الدبلوماسية والاقتصادية مع العالم الإسلامي في المغرب والمشرق، وكذلك في بلاد السودان الغربي،وكانت البداية بإحدى دول المغرب (طرابلس)؛ إذ كان لطرابلس أهمية كبيرة في الاقتصاد البَرْنُوي؛ حيث اكتسبت مدينة طرابلس شهرة واسعة في عالم البحر المتوسط كمدينة لتجارة الرقيق، فضلًا عن جاذبيتها الكبيرة للتجارة من مختلف الأصول لممارسة التبادل التجاري[1]، ومن ثمحرص مايات البَرْنُو على توطيد علاقاتهم الدبلوماسية والاقتصادية مع حكام طرابلس، ولم تؤثر الأحداث السياسية في طرابلس ولا تعاقب الأسر الحاكمة عليها في استمرار تلك العلاقات، ولذا نادرًا ما أضاعوا فرصة الحفاظ على هذه العلاقات[2].

وتوطدت هذه الصلات مع الدولة الحفصية منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي خلال عهد السلطان دونمه دباليمي الذي أرسل سفارة في عام 655هـ/ 1257م، إلى السلطان الحفصي المستنصر (647- 675هـ/ 1249- 1277م)

(1) Lange, Dierk, and Berthoud, Silvio: Al-Qasaba et d'autres villes, p. 19.

(2)Magnavita**, Carlos,** Dangbet,**Zakinet, et** Bouimon**, Tchago**: The Lake Chad region, p. 5.

وحملت السفارة هدايا ثمينة إلى البلاط الحفصي وكان من بين الهدايا زرافة أثارت رؤيتها قدرًا كبيرًا من الإعجاب لدى أهالي تونس[1]. وفي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أُرسلت سفارة أخرى سنة (727هـ/ 1327م) من قبل الماي عبد الله بن كادي(721- 743هـ/ 1321- 1342م) إلى السلطان الحفصي أبي يحيى المتوكل (ت 747هـ/ 1346م)، وكان الغرض من السفارتين هو تدعيم العلاقات السياسية والاقتصادية بين البَرْنُو من جانب وبلاد المغرب من جانب آخر[2].

وشهد القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي استمرارًا لهذه الصلات وبخاصة عهد السلطان علي غازي بن دونمه(877- 909هـ / 1472-1503م) الذي أقام صلات دبلوماسية مع بلاد المغرب الأدنى، وخصوصًا مع مشايخ طرابلس المحليين[3].

واستمر إرسال مثل تلك السفارات الدبلوماسية طيلة القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي بداية من السلطان إدريس بن علي كتكرمابي(910- 933هـ/ 1504- 1526م) الذي أرسلسفارتين إلى بلاد المغرب الأدنى؛ الأولى في بداية حكمه في عام910هـ/ 1504م، والثانية في سنة 918هـ/ 1512م، وأرسل السلطان محمد بن إدريس (933- 952هـ/ 1526- 1545م) سفارة أخرى إلى طرابلس[4]، وعندما بدأت

(1) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ضبطه ووضع حواشيه الأستاذ خليل شحادة، المجلد 6، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000م، ص417. انظر أيضًا؛

Zeltner, Jean. Claude: *Pages d'histoire du Kanem, pays tchadien*, Harmattan, Paris, 1980, p.40.; Hogben, S. J.: The Muhammadan Emirates, p.35.

(2) أ. م. كاني: مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال أفريقيا ووسط السودان بين 700م و1700م مع إشارة خاصة إلى كانم – برنو وأرض الهوسا، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد الأول، السنة الثالثة، يناير 1981م، صـ14. انظر أيضًا؛

Martin, B. G.: Kanem, Bornu, and the Fazzan, p.20.

(3) Folayan, Kola: Tripoli- Bornu Political Relations 1817 -25, Journal of the Historical Society of Nigeria, V, 4 (June 1971), p.464.

(4) مفتاح يونس الرباصي: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو، ص120.

الدولة العثمانية في حكم ولاية طرابلس، بادر السلطان دونمه بن محمد جارامابي (953- 963هـ/1546- 1555م) بإرسال سفارة إلى الوالي العثماني حوالي عام 953هـ/ 1546م[1]، وشهد حكم السلطان إدريس ألوما عددًا من السفارات المرسلة من جانبه إلى الدولة العثمانية سنة 984هـ/ 1576م، وسفارة إلى الدولة السعدية سنة 990هـ/ 1582م[2]، وبذلك فإن هذه الفترة شهدت عددًا كبيرًا من السفارات التي ساعدت على تقوية علاقات السلطنة السياسية، وفتحت مجالًا أوسع للتبادل التجاري بين السودان الأوسط والمغرب الأدنى.

وفيما يخص العلاقات السياسية والاقتصادية بين سلطنة البَرْنُو ومصر فقد توطدت هذه العلاقات بين الجانبين، وكان لموقع مصر الجغرافي أثره الكبير في جعلها حلقة وصل بين العالم الإسلامي في أفريقيا وبين بلاد الحرمين الشريفين، وقد امتازت مصر بعدة عوامل أسهمت في زيادة الاتجاه إليها؛ منها الاستقرار والأمن، فضلًا عن الطرق التي ربطت بين المنطقتين وسهلت انتقال القوافل التي تحمل الحجاج والتجار والمسافرين[3].

وقد انعكس تأثير العلاقات السياسية بين مصر والبَرْنُو على الجوانب الاقتصادية، فازدهرت الحركة التجارية بينهما، وبخاصة أن الفترة التي كان يقضيها ركب الحجيج

---

(1) Barkindo, B. M.: O Kanem-Bornu: suas relacoes com o Mediterraneo, o Baguirmi e os outros Estados da bacia do Chade, in: Bethwell Allan Ogot (Editors): Historia geral da Africa, V: Africa do seculo XVI ao XVIII, Paris, UNESCO, 2010., p.588.; Folayan, Kola.: Op.Cit., p.464.

(2) انتصار جابر يونس: الحياة السياسية في سلطنة البرنو، ص17. للمزيد راجع؛

Dewière,Rémi: A Struggle for the Sahara: Idrīs ibn ‘Alī’s Embassy to Aḥmad al-Manṣūr in the Context ofBorno-Morocco-Ottoman Relations, 1577-1583, The Annual Review of Islam in Africa, Université de Paris Panthéon Sorbonne, Issue No. 12/1 ,2013-2014, p. 87.

(3) محمد جلال عباس: حجاج أفريقيون في القاهرة، مجلة الأزهر، ج10، سنة 43، 1391هـ، صـ969.انظر أيضًا؛

Oliver, Roland & Atmore, Anthony:Medieval Africa 1250- 1800, p.19.

البَرْنُوي في مصر مكَّنتهم من التعرف على المنتجات المصرية والسلع المعروضة بأسواق القاهرة،والأسعار مقارنة بالأسعار في مراكز تجارية أخرى يمرون بها على طول الطريق التجاري، كما أن الأسواق المصرية قد تعرفت أيضَا على كثير من السلع الأفريقية المجلوبة من أفريقيا جنوب الصحراء، والتي حملها التجار وكذلك الحجاج معهم وهم في طريقهم لأداء فريضة الحج(1).

وعلى صعيد آخر اهتمت الدولة المملوكية بتأمين الطرق التجارية وبخاصة طريق أوجلة عبر الصحراء الغربية إلى فزان ومنها إلى برنو، مما زاد من التبادل التجاري لاسيما تجارة الرقيق والمحاصيل السودانية مقابل الأسلحة والأقمشة والخيل، ونشطت بين الجانبين والسلطنة نشاطًا كبيرًا، الأمر الذي دفع مايات البَرْنُو إلى اتخاذهم سفيرًا مقيمًا في القاهرة مهمته الإشراف على تنظيم قوافل التجارة ومعاونة تجار السلطنة الوافدين على الأسواق المصرية(2). وقد شجع ذلك تجار البَرْنُو ورغبهم كثيرًا في الاتجاه إلى مصر والإقامة فيها، حتى إنهم أسهموا بنصيب وافر في حركة التجارة بين مصر والسودان الأوسط(3).

وهكذا أسهمت جهود سلاطين البَرْنُو في إقامة علاقات سياسية واقتصادية متميزة مع دول المحيط الإقليمي إلى جانب توفير الأمن والاستقرار على طول الطرق التجارية في نشاط وتطور الحركة التجارية بين جنوب الصحراء وشمالها، وكذلك بين جنوب الصحراء والمشرق الإسلامي.

---

(1) الصادق السباني: مملكة كانم وعلاقتها بأقطار الشمال الأفريقي، ص127. انظر أيضًا؛
Oliver, Roland & Atmore, Anthony: Medieval Africa 1250- 1800, p.19.

(2) أمين توفيق الطيبي: كانم_ برنو بالسودان الأوسط علاقات تاريخية عريقة بالعرب والمسلمين، مجلة المؤرخ الصغير، طرابلس، العدد38، 1409هـ، ص127.

(3) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص238.

- **خاتمة:**

بينت الدراسة أن تأسيس العاصمة أسهم في زيادة الإمكانيات الإنتاجية للمنطقة، وإدراجها ضمن شبكة من التبادلات التجارية في المحيط الإقليمي، وأصبحت عاصمة البَرْنُو أحد أهم المراكز الجاذبة للتجار القادمين عبر الصحراء. وشجعت على تطوير كل من طبيعة الإنتاج المحلية والتبادلات التجارية الخارجية.

أكدت الدراسة أيضًا أن سلاطين البَرْنُووضعوا عدة تدابير توضح قدرتهم في إدارة حركة الأسواق التجارية، مما أدى إلى إحكام السيطرة على الأسواق وحماية المصالح التجارية العامة للسلطنة وبالتالي تدعيم الدخل المالي وازدهار النشاط التجاري.

وأوضحت الدراسة كذلك أن حركة التوسعات التي قادها السلاطين أسهمت في جلب الاستقرار والأمن للنشاط التجاري، كما جاء تدعيم الصلات بين حكام الكانم والبَرْنُو وبين حكام بلدان العالم الإسلامي كشكلٍ آخر من أشكال اهتمام السلطة الحاكمة بالتجارة، ولا سيما أن هذه الصلات دفعتها بالأساس عوامل اقتصادية من أجل حماية التجارة وفتح مجال أوسع للتبادل للتجاري.

الملاحق

خريطة(1) توضح الطريق التجاريمن سلطنة البرنو نحو الشمال

للمزيد راجع:

انتصار جابر يونس: الحياة السياسية في سلطنة البرنو، ص167.

Martin, B. G.: Kanem, Bornu, and the Fazzan, p.20

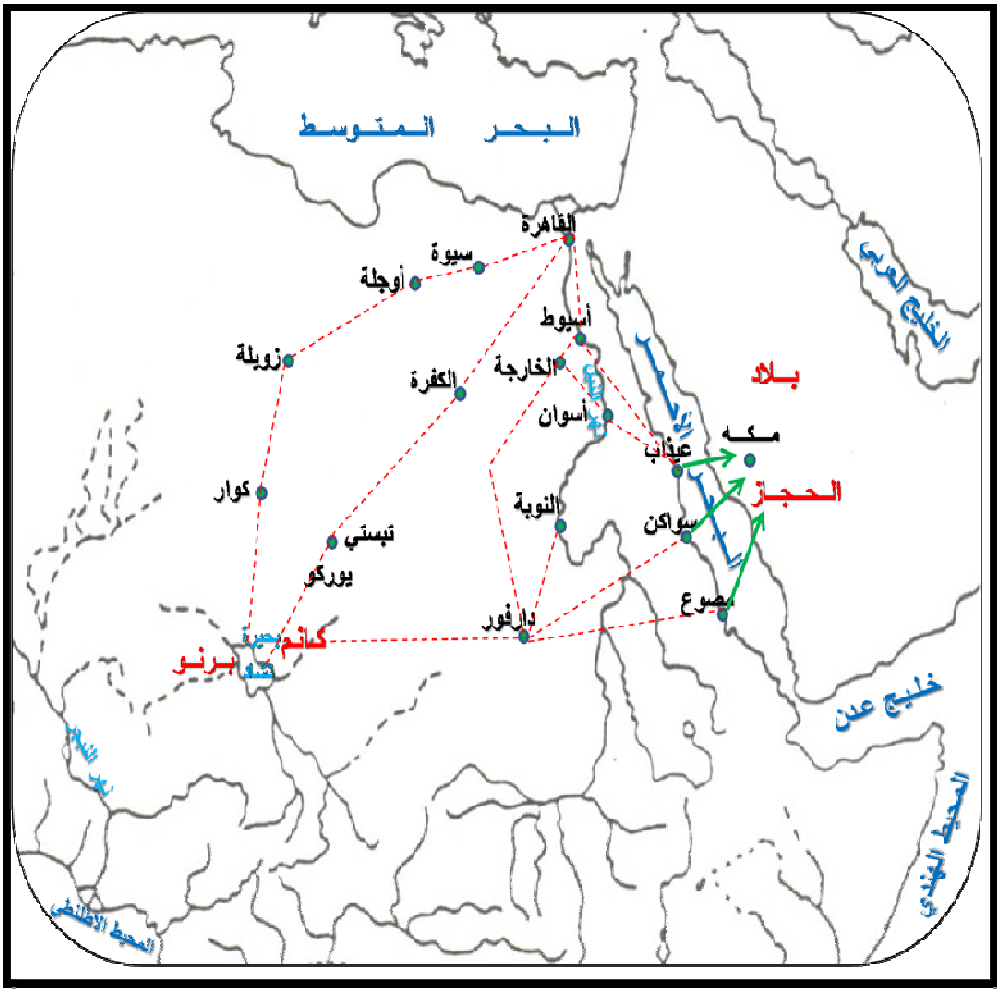

خريطة(2) توضح الطرق التجاري من الغرب إلى الشرق

للمزيد راجع:

انتصار جابر يونس: الحياة السياسية في سلطنة البرنو، ص170